

ماهية السرد : مفاهيمه ومكوناته

شميم كي^١

د. منصور أمين^٢

إن الحكاية قد تطورت مع تطور الإنسان وتقدمها، وهي قطعة حيوية من تراث المعرفة والعلم، إذن لانزال تحفظها الذاكرة الجماعية بكل ألامها وآمالها ومتخيلاتها متسايرة مع صاحبها بكل تزودها وترقيتها، وهذه الحكاية عندما تتخذ شكلا ذا طبع وظيفي وتحتوى على مفهومات معينة يقصد إليها المتكلم أو المؤلف وعندما تشمل مكونات مخصوصة وتضمرفى الوقت نفسه أصولا أساسية ووجهات مؤسسة الخطاب تصبح سردا.

”ولايمكن دراسة السرد العربي، قديمه وحديثه بدون الوقوف بالتفصيل على مجموعة من الأسس النظرية في تحليله، والسياقات الثقافية الحاضنة له، أما النظرية، فلأنها تحدد طبيعة الرئية النقدية التي إتبعت في معالجة هذه الظاهرة الأدبية خلال تاريخها الطويل الذي يربو على ألف وخمسمائة سنة، وأما الثقافية فلأنها تمثل السياق الذى إحتضن هذه الظاهرة وشارك فى صوغها وحدد ملامحها العامة.“^٣

١ باحث الدكتوراه ، قسم اللغة العربية ، يم اي أس ممباد (الحكم الذاتي) ممباد.

٢ مشرف الدكتوراه ، قسم اللغة العربية ، يم اي أس ممباد (الحكم الذاتي) ممباد.

٣ عبدالله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي. مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ط ١ ، ٢٠١٦ ، ص ٥ ، ج ١.

مفهوم السرد

وقد دلت كلمة 'السرد' بالنظر إلى الأصل على مجموعة من المفاهيم اللغوية. السرد في اللغة مقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه إثر بعض متتابعاً، وسرد الحديث ونحوه يسرده سرداً إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث إذا كان جيد السياق له، وفي صفة كلامه صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث سرداً، أي يتابعه ويستعجل فيه وسرد القرآن: تابع قرائته في حذر منه والسرد التتابع.^٤

فالسرد هو توالي الأشياء بعضها إثر بعض في حسن السبك وجمال النسج كما نفهم أيضاً من المعجم المحيط في اللغة: "سرد الحديث والقراءة سرد إسم جامع للدروع لأنه مسرد فالمسرد المثقب وهو السرد والسراد"^٥ وأما في المعجم الأدبي السرد هو "الحديث والقراءة تابعهما وأجاد سياقهما"^٦. ويتفق مع ذلك تعريف الفراهيدي عندما بين كلمة السرد في كتاب العين "سرد القراءة والحديث يسردها سرداً أي يتابعه بعضه بعضاً والسرد إسم جامد للدروع ونحوها من عمل الحلق وسمي سرداً لأنه يسرد فيثقب طرفاً كل حلقة بمسماً فذلك الحلق المسرد"^٧.

فاقتربت دلالة السرد، في اللغة العربية بالنسج، وجودة السبك، وحسن الصوغ والبراعة في إيراد الاخبار وفي تركيبها، وترددت هذه المعاني مجتمعة أو متفرقة في المعاجم اللغوية وفي مصادر الأدب العربي، وقد كرس القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: (أن أعمل سابغات وقدر في السرد) (سبأ: ١١). أي أحكم يا داود نسج الدروع وأجد في تثقيبها وكن متقناً صناعتها فاجعلها تامة الجودة. وحسب التأويل القرآني، فقد كان الدروع صفائح ثقيلة من الحديد تعيق الحركة. ولذلك أمر الله النبي داوود بأن يسردها أي أن

٤ ابن منظور لسان العرب مادة سرد محطات مج ٣ ص ٢٦٠.

٥ صاحب بن عباد. المحيط في اللغة، مادة سرد مج ٨، ص ٢٨١.

٦ جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤، ص ١٣٩.

٧ الفراهيدي: كتاب العين، مادة سرد مج ٥٦ ص ٢٢٦.

٨ عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي. مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ط ١، ٢٠١٦، ص ١١، ج ١.

يصنعها حلقا متداخلة بعضها في بعض فتيسر حركة المقاتل بها عند الحرب.^٩

مفهوم السرد إصطلاحا

كما أن معظم ألفاظ اللغة العربية المستعملة في معانيها الإصلاحية مأخوذة من إشتقاقها اللغوية كذلك لفظ السرد جرى إشتقاق دلالاته الإصطلاحية من معناه الغوي إنطلاقا من هذا يمكن القول أن السرد هو مقدمة شيء إلى شيء في الكلام والحديث على شكل متتابع لا خلل فيه كما يقول عبدالله إبراهيم: "والسرد مقدمة شيء إلى شيء في الحديث بحيث يؤتى به متتابعا لا خلل فيه أي أنه نظم الكلام على نحو بارع تتلازم عناصره فلا تنافر يخرب إتساقها والسارد هو من يجيد صنعة الحديث ويكون ماهرا في نسجه."^٩

على حسب هذه النظرية أن السرد يتوقف على دعامة مهمة وعلى فصل مقوم مشتملا على قصة أو حديث أو تاريخ أو أي نوع من أنواع الادب وهذه الدعامة هي الكيفية التي يأتي بها الكلام وفي معني ذلك يتدخل جون ساذرلاند قائلا: "ليست القصة والسرد كلمتين مترادفين ببساطة شديدة، توجه القصة إنتباهنا إلى ما يقال. أما السرد فيوجه إنتباهنا إلى الكيفية التي قيل بها- إلى البراعة الفنية وليس الموضوع."^{١٠} ولعل معنى ذلك أن السرد والقصة متغايران لكل منهما مميز ونقوم على حدة وأن السرد هو نوع من البراعة الفنية التي تجيد الادب وتجمله وأن المسرود أي القصة مضمونها نوع من أنواع الأدب من غير إعتبار الجمال الفني وهذا السرد والمسرود كلما إلتحقا وإلتصقا حتى يكون شيئا واحدا يتشكل هناك نوع أدبي فني.

ويؤيد هذا التفصيل تعريف حميد لحميداني إن السرد هو "الكيفية التي تروى بها القصة عن طريق قناة الراوي والمروي لها وماتخضع له من مؤثرات, بعضها متعلق بالراوي والمروي له والبعض الآخر متعلق بالقصة ذاتها"^{١١}, وفي هذا التعريف من زيادة الفائدة

٩ عبدالله إبراهيم , موسوعة السرد العربي. مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ط ١, ٢٠١٦, ص ١١, ج ١.
١٠ جون ساذرلاند: ترجمة محمد طارق داود, ٥٠ فكرة يجب أن تعرفها عن الأدب- المكتبة المصري للمطبوعات ص ٢٨.

١١ حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الادبي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء ط ٣, ٢٠٠٣ ص ٤٥.

لأنه تضمن مكونات السرد وأشكالها من الراوي والمروي له وأنواع الخطاب وشخصيات القصة وزمانها ومكانها.

يرى رولان بارت عند محاولته لتعريف السرد بالمفهوم النقدي الحديث، أنه رسالة يتم إرسالها من مرسل إلى مرسل إليه وقد تكون هذه الرسالة شفوية أو كتابية والسرد لديه حاضر في الأسطورة والخرافة والحكاية والقصة والملحمة-وهي شعرغالبا، والتاريخ والمأساة والكوميديا. إنه يبدأ - يعني السرد مع تاريخ الإنسانية نفسها فلا يوجد أبدا شعب دون سرد، هذا التوجه يدعم وجهة نظرنا عن وجود السرد بطرائقه المختلفة في مجمل الأجناس الأدبية. ومن بينها النصوص العربية القديمة، حتى الشفاهية منها لا يمكن مناقشة إشكالية السرد خارج الكلام على مصطلح الحكاية والحكي، وهذا ما يذهب إليه جل النقاد الذين تكلموا على مصطلح السرد، في النصوص الإبداعية الحديثة على الأقل، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الناقد جيرار جنيت الذي يعرف السرد بقوله: (هو فعل واقعي أو خيالي ينتج عن الخطاب ويعدده واقعية روائية بالذات، وهذا الرأي لاينفي إمكانية وجود السرد في الأجناس الأدبية الأخرى.^{١٢})

وهذا الرأي يعلن أن السرد قديم قدم الإنسان وأن أبنية السرد العربي القديم كانت مستقرة حسب الظروف والأغراض وحسب أنواع الأدب وأشكاله ثم لا تزال تتحول هذه الأبنية بكامل أبعادها حتى صارت مثل ما في الرواية العربية الحديثة، إتسعت دوائرها حسب دوافع الادب وموضوعاته ومتخيلاته فكانت تطورها مثل تطور الإنسان كما يشير إلى هذا المعنى كلام رولان بارت حيث هو أورد تعريفا بسيط السرد "إنه مثل الحياة علم متطور من التاريخ والثقافة.^{١٣}" وبالرغم من بساطة هذا التعريف إلا أنه عام ليس مانعا ولا جامعا لأن الحياة متمردة عن التعريف وهي مرتبطة بالإنسان المتمرد عن التعريف ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى فهم السرد بالتعابير المميزة عن غيرها وبالأوصاف المحددة حقيقتها.

ثم السرد ليس مختصا بخطاب خاص وهو يلزم كل نوع من أنواع الحكايات سواء

١٢ عبد الرحيم مرأشدة، الخطاب السردى والشعرالعربي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٢، ص ٦.

١٣ عبد الرحيم الكردي: البنية السردية في القصة القصيرة، مكتبة الآداب ط ٣ ص ١٣.

أدبية أو غير أدبية وهو في كل مرة يصاحبنا وفي كل صورة خطابية يلازمنا مع تعاقب الأجيال تتغير طبيعته وتبدل النظرة إليه فالسرد فعل لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية يبدعه الانسان أينما وجد وحيثما كان. يصرح رولان بارت قائلاً: " يمكن أن يؤدي الحكي بواسطة اللغة المستعملة شفاهية كانت أو كتابية وبواسطة الصورة ثابتة أو متحركة، وبالحرارة، وبواسطة الإمتزاج المنظم لكل هذه المواد. إنه حاضر في الأسطورة والخرافة والأمثولة والحكاية والقصة والملحمة والتاريخ والمأساة والدراما والملهات والإيماء واللوحة المرسومة وفي الزجاج المزوق والسينما والأنشوطات والمنوعات والمحادثات.

تسجل هذه القولة حقيقة شاملة ولازمة يرتبط السرد بأي نظام لساني أو غير لساني وتختلف تجلياته باختلاف النظام الذي استعمل فيه قدم لنا العرب منذ أقدم العصور أشكالاً وأنواعاً سردية متعددة وتضمن السرد الخطاب اليومي والشعر ومختلف الخطابات التي أنتجوها.^{١٤}

سرد شفوي وسرد كتابي

وإن كان أكثر العلماء والمفكرين قد إعتبروا السرد شفويا كان أو كتابيا في حيز واحد وقد عدوهما مرحلتين مختلفتين لشيء واحد في نموه وتطوره إلا أن عبدالله إبراهيم قد فرق بين سرد شفوي وسرد كتابي وشخصهما على حدة مركزا على مجتمع خاص وعلى ثقافة مميزة إتسع السردان فيهما وفي نظره أن السرد الشفوي يبني على ثقافة دينية وأصوله شرعية وظهر السرد الكتابي بعد مرحلة تاريخية طويلة ساد فيه السرد الشفوي عندما بلغت الكتابة أوج إتساعها.

فيقول في كتابه موسوعة السرد العربي أن تلك المرويات أي الشفوية ظهرت في أوساط شفوية يقوم الإرسال والتلقى فيها أعلى أسس متصلة بسيادة التفكير الشفوي ذى أصول الدينية فقد إنتزعت الشفاهية شرعيتها في الفكر القديم بناء على أصول دينية وأصبحت هذه الشفهية ممارسة مبدعة لأنها عممت أسلوب الإسناد الذي فرضته رواية

١٤ سعيد يقطين: الكلام والخبر، مقدمة السرد العربي -المركز الثقافي العربي ط ١، ١٩٩٧ ص ١٩.

الحديث النبوي على مجالات أخرى لأصلها بها بالدين وكما أن الصلة كانت قوية بين السند والمثن فقد تجلت بالصورة نفسها تقريباً في المشروعات السردية بين الراوي والمروي ولا يظهر هذا النسق إلا في الثقافات الشفاهية ومنحت الشفاهية المرويّات القديمة هويتها المميزة فربطها بأصولها والمؤثرات الفاعلة في تكوينها لا يمثل أي خفض لقيمتها الأدبية.

ينتهي السرد العربي القديم إلى نسق السرود الشفهية قد نشأ في ظل سيادة مطلقة المشافهة التي كانت تخيم على الثقافة العربية والقرون الإسلامية الأولى ليست الشفاهية نظاماً طارئاً بل هي أرضية صلبة نشأ فيها كثير من مكونات تلك الثقافة في مظاهرها التاريخية والأدبية والغوية وإستمدت قوتها من أصول الدينية التي وجهتها توجيهاً خاصاً بما جعلها تندرج في خدمة الدين رؤية وممارسة.

وأما السرد الكتابية قد ظهرت إثر مرحلة تاريخية طويلة سادت فيها السرود الشفوية في الثقافات القديمة كافة وفي هذا الضرب من السرود تكاد تتوارى الخصائص الشفوية ويصبح الخطاب وحدة كلية متجانسة تتطلب فحصاً دقيقاً. فالكتابة على نقيض المشافهة التي تفرض إنفصلاً بين الراوي والمروي لكونها تستعين بالصوت المسموع وسيلة لها فيما تعتمد الكتابة على الحرف أداة لصوغ الخطاب السردية فقد وصف 'نور ثروب' فراي السرود الشفوية بالعرضية لأنها معرضة للطمس والانتحال والإضافة والحذف والإختصار والتضخم وصورها متغيرة بين راو وآخر وبين عصر وعصر ووصف السرود الكتابية بالدائمة لأنها محمية بالكتاب والنقش من التغيير والتبديل.

والفرق بين المرويّات الشفوية والسرود الكتابية فرق في البنية والأساليب وأشكال التعبير والعوامل المتخيلة التي تشكل محتوى ذلك التعبير ثم فرق في عملية التمثيل السردية المرويّات الشفوية تمثل في الغالب فكرة إعتبارية تبلور تصوراً تخيلياً عن عالم مفترض ذي جوهر ثنائي التكوين فيما السرود الكتابية تعنى بتمثيل عالم ذي مرجعيات متنوعة بما في ذلك تفاصيل المكان والزمان وملامح الشخصيات وأنظمة الحدث رغم أن ليس بينهما تمييز على حسب عامل الزمان لكون الأولى تنتمي إلى الماضي البعيد والثانية إلى العصر الحديث إلا أنهما يتمايزان على حسب الخواص الفنية البنية السردية في كل منهما إذ إتصفت المرويّات السردية الشفوية بأنها تتألق من الراوي وحمائته والمتعلقة الضمنية

أما السرد الكتابية وإنها تتألق من تمثيل لكل من الراوى وحكايته والمتعلقة الضمنى.

ويمكن القول إن المرويات الشفوية وضعت مسافة واضحة بين مكونات البنية السردية فالراوى غالبا ما يكون متعينا أما السرد الكتابية فتتميز فالراوى المنتهى بمرويه وهو شخص أو صوت أو ضمير يتولى تقديم المادة السردية بدون إنفصال واضح عنها كما هو أمر في المرويات الشفوية.^{١٥}

البنية السردية

مفهوم البنية : البنية، هي "ما بنيته كأن البنية الهيئة التي تبني عليها."^{١٦}

وورد في لسان العرب أن البنية من فعل الثلاثي بني والبنى نقيض الهدم.^{١٧}

وهذا في المعنى اللغوي أما في اصطلاح بري جيرالد برنس صاحب قاموس السرديات أن البنية هي شبكة من العلاقات الخاصة بين المكونات العديدة وبين كل مكون على حدة والكل.^{١٨}

فالبنية هي ترجمة لمجموعة من العلاقات الموجودة بين عناصر مختلفة وعمليات أولية تتميز فيما بينها بالتنظيم والتواصل بين عناصرها المختلفة.^{١٩}

إن كلمة بنية تحمل في أصلها معنى المجموع أو الكل المؤلف من عناصر متماسكة يتوقف كل منها على ما عداه ويتحدد من خلال علاقاته بما عداه فهي نظام أو نسق من المعقولية التي تحدد الوحدة المادية للشيء فالبنية ليست هي صورة الشيء أو هيكله أو التصميم الكلي الذي يربط أجزاءه فحسب وإنما هي القانون الذي يفسر الشيء ومعقوليته.^{٢٠} والجملة أن البنية هي الهيئة الحاصلة من مجموع كل العناصر لشيء واحد

١٥ عبدالله إبراهيم , موسوعة السرد العربي. مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ط ١, ٢٠١٦, ص ٢٧-٢٩ .

١٦ المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس, مطبعة الكويت ط ٢, ١٩٨٧ ج ٢ مادة بنى ص ٣٤٠.

١٧ ابن منظور، لسان العرب دار احياء تراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي بيروت ط ٣ ١٩٩٩ ج ١ مادة بنى ص ٥٠٦.

١٨ عبد المنعم زكريا القاضي: البنية السردية في الرواية, الناشر عن الدراسات والبحوث الاجتماعية, ط ١ ص ١٩.

١٩ صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الادبي, دار الآفاق الجديدة, بيروت- لبنان ط ٣ ص ١٢٢ .

٢٠ أحمد مرشد: البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصرالله المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت ط ١ ص ١٩.

يتعلق بعضها ببعض عندما يجتمع هذه الأجزاء تصير شيئاً واحداً متكاملًا بإسم آخر سواء كان جسمياً أو عرضياً.

مكونات السرد

ونقصد بالمكونات أركان المهمة الأساسية التي يبتنى عليها السرد، وعندما يكون الحكي خالياً من واحد من هذه الأركان لا يكون سرداً إصطلاحياً والعلماء قد قسموا أركانه إلى ثلاثة:

- الراوي - أي المرسل - أو السارد
- المروي - أي الرسالة - أو المسرود
- المروي له - أي المرسل إليه - أو المسرود

الراوي

هو ذلك الشخص الذي يروي الحكاية، أو يخبر عنها سواء كانت حقيقية أو متخيلة ولا يشترط أن يكون إسمًا معينًا قد يتوارى خلف صوت أو ضمير يصوغ بواسطة المروي بما فيه من أحداث ووقائع.^{٢١} والراوي هو الشخص الذي يصنع القصة وليس هو الكاتب بالضرورة في التقليد الأدبي بل هو وسيط بين أحداث وملتقها.^{٢٢}

ربما يكون الراوي داخلًا في القصة ومشاركًا في أحداثها والمسرود يتساير معه وهذا ما ذهب إليه عبد الملك مرتاض المؤلف يظل حاضرًا في العمل الروائي إن المؤلف يتخذ له أقنعة مختلفة في الكتابة الروائية تبعًا للتقنيات السردية التي يتبناها وتبعًا للضمائر التي يتبناها دون سواها فهو حين يصطلح ضمير المتكلم يستحيل في الحقيقة إلى شخصية مركزية وإلى سارد ولكن لا أحد من العقلاء ينزع عنه صفة المؤلف^{٢٣}.

المروي :

المروي "هو كل ما يصدر عن الراوي وينتظم لتشكيل مجموعة من الأحداث يقترن

٢١ عبدالله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ص ٧.

٢٢ ميساء سليمان: البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة ص ٤٤.

٢٣ عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية ص ١٠٧.

بأشخاص ويؤطره فضاء من الزمان والمكان وتعد الحكاية جوهر المروي والمركز الذي تتفاعل كل العناصر حوله. المروي أي الرواية نفسها الذي تحتاج إلى راو ومروي له أو إلى مرسل ومرسل إليه وأن الحكاية والسرد الذين هما طرفا ثنائية لدى السانين هما وجهها المروي المتلازمان الذان لا يمكن القول بوجود أحدهما دون الآخر^{٢٤} من ضوء هذه الأقوال نستطيع أن نقول أن المروي هو القصة نفسها او المروي كل ما يصدر من السارد الذي ينتظم من عناصره الفنية المتشكلة من البنيات السردية أي الأشخاص والأزمنة والأمكنة.

المروي له المرسل إليه

المروي له هو الذي يتلقى ما يرسله الراوي سواء كان إسما متعينا ضمن البنية السردية ام شخصا مجهولا... والمروي له شخص يوجه الراوي خطابه..والإهتمام بالمروي له جعل البحث في البنية السردية أكثر موضوعية من ذي قبل ذلك^{٢٥}. فالسرد يعرض لنا قصة وهو إعادة أطوار الحياة الماضية تجتمع فيه أجزاء الحوادث التي توارت وراء الأستار وهو الذي يوصلنا الى الأزمنة السابقة والأماكن القديمة متسايرا مع الشخصيات القديمة والأحداث المختلفة واقعية أو خيالية بواسطة اللغة فليست قصة تتبوأ في مجال الأدب إلا بالسرد جمالها.

٢٤ عبدالله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص ٥٨ .

٢٥ عبدالله إبراهيم: السردية (التلقي والاتصال ص ١٠٥ .